الأدب العماني باللغة السواحيلية .. ذاكرة مشرقة من التواصل الحضاري

أقام النادي الثقافي في مقره بالقرم مساء الثلاثاء الموافق ٢١ مارس الماضي ندوة علمية حول الأدب العُماني المكتوب باللغة السواحيلية، بمشاركة عدد من المهتمين والباحثين من داخل السلطنة وخارجها ممن لهم إسهامات بارزة في هذا المجال.

وفي سياق تقديمه للندوة قال الإعلامي محمد المرجبي إن أجدادنا لهم إسهام كبير في نشوء اللغة السواحيلية التي يتحدث بها أكثر من مليون شخص حاليا، مضيفا أن العُمانيين لم يكتفوا بالإسهام بنشوء اللغة السواحيلية فقط، وإنما ذهبوا إلى جرأة أكبر بدخولهم إلى الأدب وأخذوا يتعاطون الشعر والنثر فيها، كما ظهرت الأمثال التي أثر بها العمانيون في اللغة السواحيلية.

سيف المعولي

بين العربية واللاتينية

أولى الورقات المقدمة في الجلسة كانت للباحث ناصر بن عبد الله بن مسعود الريامي مؤلف كتاب زنجبار: شخصياتٌ وأحداث - ١٨٢٨-١٩٧٢م، حيث عنوان ورقته بـ «اللغة السواحيلية بين الحروف العربية واللاتينية - نظرة تأريخية». وتطرق الريامي في ورقته إلى الجانب التاريخي للمسألة المطروحة، وهي كتابة الأدب العُماني باللغة السواحيلية، مجيبا عن عدة أسئلة منها: أي أدب عربي يكتب باللغة السواحيلية؟ وما أساس كتابة اللغة السواحيلية بحروف عربية؟ وكيف كان الانتقال إلى الحروف اللاتيني؟، وماالدافع إلى هذا الانتقال؟.

وقال الريامي إن المتمعن في تاريخ الوجود العماني في شرقي القارة الإفريقية، سيصل إلى نتيجة مؤداها أنه لا غرابة في أن نرى الأدب العُمَاني، في تلك البقاع، البعيدة عن الوطن الأم، يُكتب باللغة السّواحيلية؛ بل، ولا غرابةَ أيضًا في أن تكتبَ السواحيلية بحروف عربية؛ إذ إنهما ظاهرتان تتفقان والمجرى العادي للأمور، سيما إذا علمنا أن الوجود العُماني في تلك البقاع يرجع إلى فترات سابقة على تشكل اللغة السواحيلية، بقرونٍ طويلة. وأوضح الريامي أن آراء اللغويين اختلفت حول أصل اللغة السواحيلية فالرأي الأول اتجه أصحابه إلى أنها عربية الأصل والمنبت. واعتمدوا في رأيهم على أن السواحيلية تشتمل على حروف وكذا أصوات لا وجود لها في اللغات البانتوية. أما الرأي الثاني فيرى أن السواحيلية لغة إفريقية بانتوية مُستعربة. ويرى الريامي أن اللغة السواحيلية تأثرت بالعربية في جوانب نحوية كثيرة، مما يدحض مقولة أن النظام النحوي بانتوي صرف. ووضح الريامي أن هناك الكثير من القصائد التي كتبتها أقلامٌ عُمانية؛ باللغة السواحيلية ومن ذلك، قصيدة للشاعر سعيد بنِ خلفان بن عُديّ الريامي التنوفي الذي نظَمَها لزوجته التي هجرت بيته في زنجبار، ولجأت إلى أهلها في بيمبا، كما أن الأفارقة نظموا مجموعة من القصائد باللغة السواحيلية بالحروف العربية، والتزموا فيها بهدايات الدين الإسلامي وتعاليمه، مثل قصيدة (الانكشاف) الشهيرة، للشاعر

■ **الريامي:**

السواحيلية تأثرت بالعربية في جوانب نحوية كثيرة.

■ **زيدي:**

احتكاك العُمانيين والسواحيليين ترك أثرًا كبيرًا من الناحية اللغوية.

■ **البوعلي:**

الأجناس الأدبية المكتوبة باللغة السواحيلية لكُتّاب من أصول عُمانية متوفرة

الأفريقي عبدالله علي نصَّار؛ وقصيدة (الهمزية) الشهيرة للشاعر عيدروس بن عثمان بن علي. كما تحدث الريامي في ورقته عن تدخل المستعمر البريطاني، لتغيير حروف اللغة السواحيلية إلى الحروف اللاتينية.

تسجيل الأحداث

الورقة العلمية الثانية كانت للدكتور عيسى الحاج زيدي عميد كلية اللغة السواحيلية واللغات الأجنبية بجامعة زنجبار الذي ركز فيها على دور الأدب السواحيلي في تسجيل الأحداث التاريخية في عهد السلاطين العُمانيين في زنجبار (١٨٣٢-١٩٦٣).

وتحدث الدكتور في ورقته عن احتكاك العُمانيين والسواحيليين واختلاطهم عبر العصور في مناطق سواحل شرق أفريقيا، الأمر الذي ترك أثرا كبيرا من الناحية الانثروبولوجية، والبيولوجية، والثقافية، والحضارية واللغوية.

ووضح الدكتور عيسى الحاج زيدي أنه بناء على واقع أن المجتمع الزنجباري الذي كان للعرب العُمانيين دور بارز في الحكم والتجارة والزراعة؛ فكان من المتوقع أن توجد الكثير من المذكرات أو التسجيلات أو المجلدات الأدبية نثرية كانت أو شعرية التي تتناول الوقائع والأحداث التاريخية العمانية التي حدثت في زنجبار وعُمان.

وذكر عيسى الحاج زيدي أنه وجد كُتيبين صغيرين أحدهما للشيخ ناصر بن سالم الرواحي يتناول سفر السيد حمود إلى لاموا، والآخر للشيخ زاهر بن سعيد يوضح رحلة السيد برغش إلى أوروبا. واعتمد عيسى الحاج زيدي في ورقته على كتاب «تاريخ السلاطين البوسعيديين في زنجبار» للأديب والمؤرخ الشيخ عبد الله صالح الفارسي، وبخاصة قصائده الشعرية، كما اعتمد على نسخ من صحيفة المعرفة (السواحيلية) التي كُتبت في الخمسينات من القرن العشرين والموجودة في دار الوثائق الوطنية في زنجبار والتي اكتظت بالشعر القصصي والملحمي للسلاطين العمانيين في زنجبار، وخاصة السيد خليفة بن حارب.

أجناس أدبية

في الورقة الثالثة تحدثت الدكتورة آسية البوعلي، مستشارة أولى للعلوم الثقافية بمجلس البحث العلمي عن إشكاليات السرد في كتاب صانعة الفخار تدخل القصر: سيتي بنت سعد: ملكة الطرب» حيث قالت أن نماذج الأجناس الأدبية بشقيها النثري والشعري المكتوبة باللغة السواحيلية لكُتاب

الغساني:
ثلاث حقائق لا ينبغي إغفالها لإسهام العمانيين في الأدب السواحيلي

من أصول عُمانية، متوفرة في مكتبات زنجبار ومن المؤكد في خارجها إلا أن أهمية هذا المحور من الندوة لا تكمن في طرح الأجناس الأدبية فحسب، إذ من المتوقع أن تتوفر هذه الأجناس أوبعضها في الأدب السواحيلي المدون بأقلام عُمانية، لأن المهجر العُماني بشرق أفريقياستتبع باستيطان قارب القرنين من الزمان.

ووضحت آسية البوعلي أن المحور تجاوز مجرد ذكر تلك الأجناس إلى ما هو أعمق متمثلا في ضرورة استقصاء تلك الأجناس وتتبعها وجمعها، وتصنيفها كورنولوجيًا، ثم تمحيصها بدراسات نقدية وموضوعية.

ووضحت الدكتورة آسية أن ورقتها البحثية هي محاولة تمهيدية لطرح مجموعة من الإشكالات إزاء كتاب من الحجم الصغير ينتمي في موضوعه إلى فن السيرة؛ تحديدًا سيرة الآخر. وهو يقع في ٩١ صفحة، وتعرض فيه صاحبته سيرة ملكة الطرب في زنجبار منذ مولدها في القرن التاسع عشر (بدون تحديد دقيق لتاريخ الميلاد) إلى وفاتها في عام ١٩٥٠ م. متضمنًا بعض الصور الفوتوغرافية كنوع من التوثيق، فضلا عن مقاطع من أغاني ملكة الطرب مع الشرح لمعانيها.

حضور الندوة

قصة سرحاني

اختتمت الندوة بورقة رابعة قدمها الصحفي والشاعر محمد خليف الغساني المقيم في بون بألمانيا، وجاءت بعنوان (الإسهام العُماني في الشعر السواحيلي: قصة سرحاني وكمانج). وأشار الغساني في ورقته إلى أن هناك ثلاث حقائق لا ينبغي إغفالها أولها أن الأدب العُماني هو في حد ذاته جزءٌ لا يتجزأ من الأدب العربي، وثانيها أن وجود العرب بشكل عام، والعُمانيين، على وجه الخصوص، في السواحل السواحيلة في شرق أفريقيا كان منذ قرون عديدة قبل مجيء الأوروبيين وحتى قبل العديد من القبائل الأفريقية التي جعلت السواحل موطنًا لها، وثالثها أن العديد من الشعراء السواحيليين هم من أصول عُمانية أو لهم جذور عربية.

وذكر الغساني أن من هؤلاء عمر بن أمين الأهدل (١٧٩٠ – ١٨٧٠) الذي كتب منظومة الدرة، التي أصبحت فيما بعد أسلوبا شعريا بحد ذاته؛ وعبد الله بن علي بن ناصر (١٧٢٠ – ١٨٢٠) والشيخ أحمد النبهاني، ورقية بنت فاضل البكري (١٨٩٢ –١٩٦٨)، وغيرهم. وأكد الغساني أن كل هؤلاء الشعراء السواحيلين من أصول عربية وعمانية، أسهموا بقدر كبير في التعرف على الأدب السواحيلي، وبسببهم أصبح للشعر السواحيلي مكانته اليوم.

الفراشة التي أغراها النور

(إلى روح حبيبي ابن أختي مازن بن سليمان الهنائي)

أحمد الرمضاني

***

لم تَكدْ اليرقة النَّضِرة
تتحول فراشةً
حتى رفرفرت عاليًا
نحو النور اللانهائي الباهر
ونحن نحدق مشدوهين
– وبأيدينا قناديل باكية
نستجدي بها الفراشة
أن تعود –

***

قرب المقبرة
كانت الديكة تصيح في غير موعدها
لقد أبصرت ملاكا
يصعد مبتسما

***

كل هذه الدموع المسفوحة
لا تروي ظمأ عروق الغافة التي كنت تلهو
تحتها
في كل غصن صورة
في كل ورقة ذكرى
كل هذه الدموع الصادقة
لا تروي ظمأ العصفور
المتعفر بالدم
في القفص الصدري

***

القفص،
حيث نحن
أما أنت
فحرٌّ تسبح في فضاء الأبدية

***

الصلوات
تتزاحم بلطف
على باب السماء
خشية أن توقظ
الملاك الصغير المُتعبَ
في هذه الليلة

×××

في لقائنا الأخير
كنتَ تحاولُ أن تعلمني
كيف أنظر إلى عينَيّ والدَيْكَ
دون أن أنكسر

الآن هناك زجاج
غابشٌ بالدمع والذكريات
وصمتٌ أثقل من فراغ العدم
يسحق نظراتنا المحطَّمة

***

ياللفراشات كيف يسحرها النور
غير أننا –نحن– لا سوانا من نحترق

***

غريبة هي المساءات الجنائزية
كيف تكون أعراسا
في الضفة الأخرى

***

شال أمك الأسود
يطير بك في لجة من بياضٍ ثلجيّ

***

مصاب أبوك بالدوار
من فرط تلفُّته
بحثا عن صوتك القادم من كل الجهات:
(أبيبي)

***

مصابون بالربكة
كلما نبكي ترنّ ضحكتك
في رخام القلب

***

هاهم جميعا يتفرقون
نحو مضاجعهم
يتسربلون بالدمع والنحيب :
متى نستفيق من هذا الحلم!

***

إنها تمطر هناك
في الجنة
كما لم تمطر من قبل

***

القلوب مُعشبة بالغياب
مورقةٌ بالفقد